روحية العطاء وقيمته

لقد اعتبر الإسلام العطاء من ميزات المؤمن، هو جزءٌ من إيمانه وتقواه، ولذلك عندما تحدّث عن المؤمن قال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (الأنفال/ 3-2). فالمؤمن لا يقف عند حدود العبادات، بل يحوّل العلاقة بالله إلى خدمة لعياله، فالخلق كلّهم عيال الله، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله.. لهذا كان الإنفاق من ميزات المتّقين: (وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران/ 134-133). هم ينفقون في كلّ الحالات؛ في اليُسر والعُسر، ينفقون حُبّاً وعفواً وتسامحاً، كما ينفقون مالاً وطعاماً.. فكلّه عطاء. عندما تحدّث الإسلام عن العطاء، لم يرد له أن يكون عطاء الفرد، بل دعا الأُمّة المسلمة أن تكون أُمّة الخير في تعاملها حتى مع الذين يختلفون معها: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران/ 104). وأراد أن تكون الأُمّة التي تمدّ جسوراً مع الأُمم الأُخرى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ) (آل عمران/ 64). وأراد لها أن تكون الأُمّة التي تتفاعل مع بقيّة الحضارات: (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات/ 13).

لهذا نجد في التشريع الإسلامي تأكيد العطاء في الواجبات المالية من الخُمس والزكاة: (وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) (الأنفال/ 41). إنّ الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلّا بمنع الأغنياء، وإنّ الله محاسبهم ومعذّبهم عذاباً أليماً. لكنّ هذا التأكيد لم يقف عند حدود المال، فهناك زكاة القدرة وهي الإنصاف، وزكاة الجمال

وهي العفاف، وزكاة الصحّة وهي السعي في طاعة ا، وزكاة الشجاعة وهي الجهاد في سبيل ا. ولم يقف الإسلام عند حدود الواجبات، بل حثّ على المستحبات: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم) (التوبة/ 103)، لكنّه لم يرد للصدقة أن تبقى في حدود المال، ففي حديثٍ لرسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم): «على كلّ مسلمٍ في كلّ يوم صدقة». قيل: ومَن يطيق ذلك يا رسول ا؟ قال: «إماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل إلى الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة». وورد أيضاً: «صدقة يحبّها الله؛ إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا»، «أفضل الصدقة صدقة اللسان»، «عونك للضعيف من أفضل الصدقة»، «أفضل الصدقة إبراد الكبد الحرّى»، «تبسّمك في وجه أخيك صدقة». وكان الإمام عليّ (عليه السلام) يوصي أصحابه: «بادروا بعمل الخير قبل أن تشتغلوا عنه بغيره»، «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

لم يرد الإسلام للعطاء أن يحدّ بحدود الزمان والمكان، ولا المذهب والدِّين: (وَاعْبُدُواْ اَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا) (النِّساء/ 36) و(لا يَنْهَاكُمُ اُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة/ 8). ابذل لأخيك دمك ومالك، ولعدوّك عدلك وإنصافك، وللعامّة بشرك وإحسانك، هذا ما يعلّمنا إيّاه إمام المتّقين (عليه السلام): «يا كميل، مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة مَن هو نائم».